المحاضرة السادسة: شعر النقائض.

مراجع المحاضرة:

- أحمد الشايب: تاريخ النقائض في الشعر العربي.
- عمر فروخ: تاريخ الأدب العربي. الأدب القديم من مطلع الجاهلية إلى سقوط الدولة الأموية.
- شوقي ضيف: تاريخ الأدب العربي. العصر الإسلامي.
- محمد إسماعيل عبد الله الصاوي: شرح ديوان جرير.
- مكلي شامة: الآليات الحجاجية في نقائض جرير والفرزدق من خلال نقيضتيهما " سم ناقع " و " إن الذي سمك السماء"
- جبارية مصطفاوي: الخطاب في شعر النقائض- نقائض جرير والفرزدق- دراسة تداولية.
- سعاد ترشاق: محاضرات في النص الأدبي القديم.

تعريف النقائض لغة: جاء في لسان العرب: " النقض إفساد ما أبْرَمْتَ من عقد أو بناء، والنقض ضد الإبرام. والنقيضة في الشعر ما ينقض به، وكذلك المناقضة في الشعر ما بنقض الشاعر الآخر ما قاله الأول. والنقيضة الاسم يجمع على النقائض"

وقد ورد هذا الفعل في القرآن الكريم في قوله تعالى: " وَلَا تَكُونُوا كَالَّتِي نَقَضَتْ غَزْلَهَا مِن بَعْدِ قُوَّةٍ أَنكَاثًا تَتَّخِذُونَ أَيْمَانَكُمْ دَخَلًا بَيْنَكُمْ أَن تَكُونَ أُمَّةٌ هِيَ أَرْبَىٰ مِنْ أُمَّةٍ ۚ إِنَّمَا يَبْلُوكُمُ اللَّهُ بِهِ ۚ وَلَيُبَيِّنَنَّ لَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ"

وقوله كذلك:" وَالَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِن بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَن يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ أُولَٰئِكَ لَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ"

اصطلاحا: النقيضة قصيدة يرد بها شاعر على قصيدة خصم له، فينتقض معانيها عليه؛ بقلب فخر خصمه هجاء، وينسب الفخر الصحيح إلى نفسه هو، وتكون النقيضة عادة من بحر الخصم وعلى رويها.

ولا بد من وحدة الموضوع في النقائض؛ فخرا أو هجاء أو سياسة أو رثاء أو نسيبا، أو جملة من الفنون المعروفة إذا كان الموضوع هو مجال المناقشة، ومادة النقائض، أما المعاني فالأصل العام فيها المقابلة والاختلاف، لأن الشاعر

الثاني همه أن يفسد على الأول معانيه، فيردها إن كانت هجاء، ويزيد عليها مما يعرفة أو يخترعه، وإن كان فخرا كذَّبه فيها أو فسرها لصالحه هو، أو وضع إزاءها مفاخر لنفسه ولقومه.

وكان الشاعر في نقيضته يستحضر تاريخ القبائل وأيامها وأخبارها، لذلك كانت النقائض وثائق تاريخية ومرجعية لمعرفة الأنساب والأيام. فكان شعراء النقائض يتناظرون في حقائق القبائل ومفاخرها ومثالبها، وكل منهم يدرس موضوعه دراسة دقيقة، ويبحث في أدلته ليوثقها، وفي أدلة خصمه لينقضها دليلا دليلا، وكأننا أصبحنا أمام مناظرات شعرية، وهي مناظرات كانت تتخذ سوق المربد مسرحا لها. فالشعراء يذهبون هناك، ويذهب إليهم الناس ويتحلقون من حولهم، ليروا من تكون له الغلبة على زميله أو زملائه.

نشأة النقائض: تعود البدايات الأولى للنقائض إلى العصر الجاهلي، لكنها في أول أمرها لم تأخذ صورة النقائض بكل أصولها وعناصرها وشروطها الفنية، وكانت تأخذ صورة الرد الذي لا يتقيد بأصول النقيضة.

والنقائض فن عريق عراقة فني الفخر والهجاء في الشعر العربي، وقدم المنافسات القبلية، والمنازعات العصبية التي سادت الحياة العربية قبل الإسلام بسنين طويلة.إلا أن الشاعر الجاهلي لم يكن يهجو ليضحك جمهورا ولا ليقطع له أوقات فراغه، ولم يكن يهجو أمام خصومه مباشرة، ولم يكن يحترف الهجاء على النحو الذي عرفته نقائض العصر الأموي.

فلما جاء الإسلام وجدت النقائض تربة خصبة لها، فازدهرت وسط الحرب الكلامية التي اندلعت بين أنصار الرسول صلى الله عليه وسلم وكفار قريش. ثم عرفت ازدهارا لا مثيل له في العصر الأموي، وسط الصراع الذي اندلع بين الشيعة والخوارج والأمويين، إذ استغلته الدولة الأموية استغلالا كبيرا، لتصرف العامة عن شؤون الخلافة والسياسة.

عوامل تطورها في العصر الأموي: ساهمت عوامل كثيرة في تطور النقائض في العصر الأموي منها:

1 – العامل السياسي: يتمثل في الصراع بين الشيعة والخوارج والأمويين، إضافة إلى الصراع بين قبيلتي قيس وتغلب.
2 – العامل النفسي: ويرتبط بنفسية أصحاب النقائض من حيث استمتاعهم بالرد على بعضهم البعض وإثارة نفوسهم للتهاجي.
3 – العامل الاجتماعي: ويعود إلى العصبيات القبلية التي عادت للظهور من جديد في هذا العصر .

موضوعات شعر النقائض: خاض شعراء النقائض في موضوعات كثيرة منها؛ الهجاء والفخر والحماسة، فهي تعد فنونا رئيسية لفن النقائض، إضافة إلى الرثاء والنسيب والسياسة والمدح.

ومثال قيام النقيضة على الرثاء قول جرير في رثاء زوجته: من بحر الكامل

لولا الحياء لعادني استعبار ولزرت قبرك والحبيب يُزار

ولقد نظرت وما تَمَتُّعُ نظرة في اللحد حيث تَمَكَّن المِحْفار

ولهت قلبي إذ علتني كبرة وذوو التمائم من بنيك صغار

فرد عليه الفرزدق يفسد معانيه في نقيضة من بحر الكامل:

أَبكى الإله على بلية من بكى جدثا ينوح على صداه حمار

كانت منافقة الحياة وموتها خزي علانية عليك وعار

فلئن بكيت على الأتان لقد بكى جزعا غداة فراقها الأعيار

ومن المواضيع التي تناولها شعراء النقائض، وكانت نقطة سوداء في تاريخ النقائض؛ موضوع المرأة، إذ أصبحت المرأة في هذا الغرض عرضة للهجاء،والفحش من القول، ونال هذا الغرض من أعراض الأمهات، والزوجات، والأخوات...ومن نماذجه قول الفرزدق وهو يعير أم جرير:

أزرى بجريك أن أمك لم تكن إلا اللئيم من الفحولة تفحل

قبح الإله مَقَرَّة في بطنها منها خرجت وكنت فيها تحمل

ويهاجم جرير الفرزدق ويقول في أمه:

تَسُوفُ التَّغلبية وهي سَكرى قَفَا الخنزير تحسبه غزالا

تَظَلُّ الخَمْرُ تَخْلِجُ أخدعيها وتشكو في قوائمها امْذِلالا

أتحسِب فلْسَ أمّك كان مجدا وجَدَّكُمُ عن النّقد الجُفالا